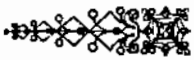

التوسل

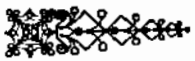

يدور الجدل من قديم حول زيارة أضرحة الأولياء والتوسل إليهم . . كما يدور الجدل حول موضوع الوساطة والشفاعة فى الإسلام . . وهناك وجهات نظر متعددة . . والموضوع دقيق . . ولى فيه رأى .

فالقرآن يرفع الوساطة بين العبد وربه ويجعل العلاقة بين الإنسان وبين الله علاقة مباشرة . . العبد يدعو والرب يستجيب .

« وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ». ٦٠ – غافر

« وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ». ١٨٦ – البقرة

بل هو أقرب إلينا من حبل الوريد (أى من الدم فى أجسادنا) ولا حجاب بيننا وبينه إلا جهلنا .

ولا كهنوت فى الإسلام ولم يظهر عندنا بابوات يمنحون صكوك الغفران لأن الله فتح بابه على مصراعيه لكل من يفكر فى الدخول عليه .

بمجرد أن يتوجه العبد إلى القبلة مكبراً . . الله أكبر . . فى أى مكان من الأرض رافعاً يديه للصلاة . . يصبح بين يدى ربه دونما حاجة إلى وسيط لإدخاله إلى الحضرة الربانية .

ولهذا اقتصر دور رجل الدين فى الإسلام على الاجتهاد فى العلم

ونشر الدعوة . . ولم يشتغل أحد بالوساطة ولم يزعم أحد لنفسه شفاعة .

ومع ذلك قال كثير من الصوفية بالتوسل والبركة واعتقدوا فى التقرب إلى الله بشفاعة الرسول وآل البيت والأولياء .

واعتمدوا فى هذا الإيمان على أن الشفاعة وردت فى القرآن مشروطة بالإذن .

« مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلاَّ بِإِذْنِهِ ». ٢٥٥ – البقـرة

« مَا مِنْ شَفِيعٍ إلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ». ٣ – يونس

« وَلاَ تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ». ٢٣ – سبأ

ومعنى ذلك أن القرآن ينفى الشفاعة إلا إذا كانت بإذن وقبول من الله .

وذلك معناه أيضاً أن هناك شفاعة مقبولة وشفاعة غير مقبولة . . وأن هناك شفيعاً يؤذن له . . وشفيعاً لا يؤذن له .

واستدلوا بقول الله للرسول عليه الصلاة والسلام :

« خُـذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ». ١٠٣ – التوبة

فجعل الله من صلاة الرسول وأسطة رحمة وسكن .

كما استدلوا بطلب قوم فرعون وساطة موسى حينما نزل بهم القحط .

« قَالُـوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِى إِسْرَائِيلَ » ١٣٤ – الأعراف

وقد استجاب الله لتلك الوساطة كما تقول الآيات ولكن فرعون عاد فنكث عهده .

كما استدلوا بقصة الغلامين اللذين كان لهما كنز فحفظه الله من الضياع ببركة صلاح الأب .

« وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ » . ٨٢ – الكهف

كما استدلوا بذكر القرآن استغفار الله مقروناً باستغفار الرسول كشرط لبلوغ التوبة فى قوله عن الظالمين :

« وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَّحِيماً » . ٦٤ – النساء

وكلها آيات صريحة عن شفاعة الرسول وفائدة التوسل بالصالحين .

ولكن المنكرين استدلوا هم أيضاً بآيات صريحة وقاطعة مثلما قال الله تبارك وتعالى للرسول عن الكافرين :

« اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ » ٨٠ – التوبة

فهى آية صريحة تنكر جدوى الوساطة ولو كانت سبعين استغفاراً من الرسول الكريم .

ومثلها إنكار القرآن استغفار إبراهيم لأبيه :

« وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ » . ١١٤ – التوبة

ومثلها إنكار الملائكة على إبراهيم توسطه لرفع العذاب عن قوم لوط .

« فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ . إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ . يَإِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ » . ٧٤ – ٧٥ – ٧٦ – هود

فإنكار الملائكة على إبراهيم الوساطة صريح .

واصرح من ذلك ما جاء من زجر الله لنوح عن الكلام فى شأن الظالمين .

« وَلاَ تُخَاطِبْنِى فِى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ » . ٢٧ – المؤمنون

والآيات المؤيدة لكلا الفريقين (المؤمنين بالتوسل والمنكرين له) قاطعة .

فكيف نفهم الأمر . . وهل هناك تناقض . . ؟ !

والواقع أنه لا يوجد تناقض . . والآيات فى الحقيقة تتكلم عن مستويات مختلفة .

والمبدأ الرئيسى والجوهرى أن حكم الله لا يرد .

« وَاللهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ » . ٤١ – الرعد

فلا يستطيع نبي ولا ولى أن يرد قضاء الله أو يعدل حكمه ولا يجوز له أن يسعى إلى هذا التعديل ولا ينبغى له أن يفعل ذلك .

والشفاعة الواردة فى القرآن لا ترفع حكماً ولا تبدل قضاء . . وإنما هى مظهر تشريفى من مظاهر هذا القضاء ذاته .

فالله فى سنته الأزلية إذا أراد لعبد خيراً . . يناوله هذا الخير بيد عبد مثله .

فالله يشفى على يد جراح . . ويعلم عباده على يد أساتذة الجامعات وينذرهم بلسان الأنبياء المرسلين . . وهو يغرق بالسيل ويسقى بالمطر ويقتل بالصاعقة . . وهو يرزق التاجر على يد تاجر مثله .

وكان يمكن لله أن يناولنا المال بيده مباشرة ويشفينا بكلمة دون حاجة إلى جراحة أو دواء ولكنه أقام الأسباب ليناولنا الخير عن طريق الأيدى المباركة التى يحبها ويناولنا الشر عن طريق الأيدى الآثمة التى يبغضها .

وفى الآخرة سيناولنا الله البراءة والنجاة عن يد رسولنا الكريم وذلك هو مقام الشفاعة العظمى ، وذلك هو معناه .

والرسول بهذا المعنى مناول خير ومناول فتح ومناول رحمة . . وهو لا يبدل حكماً ولا يغير قضاء . . تعالى ربنا عن أن يشرك فى حكمه أحداً .

« لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ » . ١٦ – غافر

لا اله إلا هو . .

فالله وحده هو صاحب الكلمة والأمر والحكم .

ولهذا قطع القرآن بأن استغفار الرسول عليه الصلاة والسلام للكفار لن ينجيهم . . وقال إن استغفار إبراهيم لأبيه كان عن أمل فى إيمانه حتى إذا تبين له أنه عدو لله تبرأ منه .

كما جاء كلام الملائكة فى توسط إبراهيم لقوم لوط عنيفاً :

« يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ » . ٧٦ – هود

ومعنى ذلك أن الوساطة والتوسل والشفاعة بالمعانى التى نفهمها فى الدنيا (وهى التوسط عن غير حق وعن غير جدارة) لا مكان لها فى الدين وهى غير واردة إطلاقاً . . فكلمة النبى لا تنجى كافراً ولا تنقذ ظالما عاصيا مات على ظلمه دون توبة .

وإذا كانت الوظائف والمنازل والمراتب فى الدنيا يفوز بها الوصوليون

بالتملق والوساطة والتوسل فهذا أمر ممتنع تماماً فى الآخرة . . ومثل هذا التوسط محال .

والملائكة لا يتكلمون بين يدى ربهم إلا من جاء بالحق وقال صواباً « لَايَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَقَالَ صَوَاباً » ٣٨ – النبأ فلا إذن لأحد بكلمة إلا إذا كانت حقًّا .

وكلمات الرسل لن تغير ولن تبدل من قضاء الله شيئاً فهو الشاهد على كل الشهود . . ولن يزداد ربنا بكلمات الرسل والشهود والملائكة والكاتبين علماً على علمه . . فهو سبحانه أحاط بكل شىء علماً .

إنما يأذن الله لرسوله بالشفاعة لمن كتب لهم النجاة مسبقاً فى كتابه (وذلك من باب التشريف) ليكون الرسول هو مناول البراءة والرحمة لأتباعه يصلهم الخير العميم على يده (وذلك هو معنى الشفاعة) .

ولذلك يقول النبى عليه الصلاة والسلام :

« إنما أنا قاسم والله معط ».

فالعطاء من الله والخير من الله والحكم من الله وإنما يشرف الله رسوله بأن يكون هذا الخير بشفاعته وعن يده .

وصلوات الرسول سكن لمن يصلى لهم ولكن لو أراد الله ألا ينالوا سكناً لما أذن لرسوله بهذه الصلوات ولما صلاها أصلا .

والمعنى دقيق . . فلا أحد يسبق الله . . ولا حكم يتخطاه أبداً والمراد بالتوسل فى الآية :

« وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ». ٣٥ – المائدة

إن وسيلة كل إنسان عمله .

ولكن العمل الأمثل هو اتباع الرسول واتخاذه قدوة فى جميع الأعمال .

« لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ » . ٢١ – الأحزاب

فالرسول بهذا المعنى « وسيلة » غير مباشرة لأنه قرآن يمشى على الأرض ونموذج كامل للخلق الشريف الأمثل . . ومن مشى على قدمه تناول البراءة على يده ودخل الجنة بشفاعته (إذ سيكون مأذونا فى هذه الشفاعة بحكم سنة الله فى كل المتبعين) .

وشهادة الأب الصالح للابن الصالح . . وشهادة الملائكة للأبرار الذين كانوا لهم قرناء على الأرض .

وشهادة الأرواح المرشدة لأتباعها .

كل هذه الشهادات لا تزيد الله علماً على علمه (فالله لا يحكم بالمداولة ولا يحتاج إلى محلفين ولا يحتاج إلى مشورة قاضى يمين وقاضى يسار) وهو قد حكم من الأزل وانتهى الأمر . . إنما هذه شهادات شرف لأصحابها والإذن بها علامة ارتفاع منازلهم عند الرب . . ومنتهى التشريف أن ينجو الناجى عن لسان هؤلاء الأنبياء وأن يتناول براءته من أيديهم .

هذا هو المعنى الإسلامى للشفاعة والتوسل . وهو شىء آخر غير ما يجرى فى أضرحة الأولياء من تقبيل النحاس وإلقاء الخطابات فى المقام والصراخ الساذج من المكلومين .

مدد يا رفاعى

نظرة يا سيد

إيدك معانا يا بدوى

همتك معانا يا قطب الرجال

أغثنا يا رسول الله

الشفا بإيدك ياسيدى إبراهيم يا دسوق

أنا جايلك يا حسين ماترجعنيش إيدى فاضية

يا ست . . الأمر أمرك .

وقد نسى الكل التوجه إلى الله وتشبثوا بقضبان نحاسية يغمرونها بالدموع . . وجاء الفلاحون من أقاصى الريف وضربوا خيامهم كالحجيج يبيتون ويأكلون ويشربون . . وفى الموالد ترقص الغوازى ويغنى صاحب الربابة ويستعرض عنتر عضلاته . . ويتحول السامر إلى سوق لبيع المسابح والزمامير والحمص واللب ولبيع الأعراض أحياناً . . ومدد يا سيد . . وكله بركة .

تلك جاهلية لا يعرفها الإسلام . . وشعوذات وسخافات تجب محاربتها والقضاء عليها .

وقبور الأولياء لها حرمة .

وحدود الزيارة أن يقرأ الزائر الفاتحة ويترحم على ساكن الضريح ويجدد عهده للرسول وعترته بالعمل الصالح والاقتداء والاتباع ويدعو الله ببركة نبيه أن يجعل له نصيباً فى شفاعته لا يتشبث بنحاس ولا يطوف بمقام ولا يترامى على ضريح ولا يعدل بوجهه عن الله لحظة .

ذلك هو موقف الأدب فى حضرة الأولياء .

فليس عند أحد من الأولياء مدد .

إنما المدد يأتى من الله وحده .

والفتح من عند الفتاح . . هو الذى يستغاث وحده وترتجى عنده المقاصد .

ومقام الشفاعة هو تشريف الرسول بأن يكون مناولا للفتح . . من مشى على قدمه أخذ من يده ، ولكن المعطى هو الله . . والإذن بالشفاعة والعطاء من عند الله .

وهى شفاعة لا تبدل حكماً ولا تتخطى قضاء ، وإنما هى تنفيذ لما سبق فى حكم الله منذ الأزل . . وهى لا تصل إلا لمستحق .

لا تجدى شفاعة لكافر ولو اشترك فيها كل الأنبياء وهو أمر لا ينبغى لهم بحكم مقامهم .

يقول طالبو الشفاعة والمستصرخون والمتوسلون يوم القيامة حينما يذهب عنهم الروع بعد الفزع الأكبر . . يقولون للملائكة . . ماذا قال ربكم فى مسألتنا فيقول الملائكة . . الحق . .

« الحق » . . كلمة واحدة يرد بها الملائكة . . فلا شىء فى هذا اليوم غير الحق . . لا تجدى شفاعة فى غير حق . . ولا إذن لشفاعة فى غير حق . . ولا مكان لفوضى الوساطة بالمعنى الذى نعرفه فى الدنيا ، يقول القرآن يصف هذا الموقف العصيب :

« حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ » . سبأ ٢٣

أى تعالى ربنا أن يتخطى حكمه حكم وأن يتجاوز الحق بأى سبيل .

وفى إطار هذا المعنى الجليل تفهم الشفاعة ويفهم التوسل .